

# لنحو الكوفة في المتنبي



للأستاذ علي النجدي ناصف

ما كان المتنبي حين ينظم شعره ليدع نحو الكوفة جانبا ، ويتبدل به من نحو البصرة قانونا يتبعه فيما يعمل وما لا يعمل ، فإن في نحو الكوفة كفاية منه وبلاغاً . والكوفة يعد موطنه الذي نشأ بين أحضانه واستظل بظله ، وعاش بين أهله يمارس الحياة معهم ، وينهج فيها نهجهم ، وهم له قدوة يحاكيهم ، ويأخذ عنهم مما يعملون .

ومن يدري لعل المتنبي لم يكن بحسن نحو البصرة ، أو لعله لم يكن يعرف منه إلا القليل ، فقد كان شاعرا لائحيا . وإني ذاكر في هذا المقال طائفة من نحو الكوفة ، سبق إليها المقدمون من نحائها ، فقرروها وأحكموا أمرها ، وخلفهم المتنبي فيها مع الخالفين ، ينظم على مثالها ، ويوسع مجلب استعمالها . وهي هذه :

في قصيدة مدح بها المغبث العجلي :

وكلما لقي الدينار صاحبه

في ملكه افترقا من قبل يصطحبا <sup>(١)</sup>

يريد من قبل أن يصطحبا .

وقوله من قصيدة في مدح محمد بن رزيق

الطرسوسي :

بيضاء يمنعها تكلم دلتها

تيها ويمنعها الحباء قميسا <sup>(٢)</sup>

(١) إضمار أن المصدرية ونصب المضارع بها بلا

عوض منها

يري البصريون أن أن المصدرية لا تنصب وهي مضمرة إلا اذا كان في الكلام عوض منها ، كاللام ، وأو ، وحتى . ويرى الكوفيون أنها تنصب حينئذ بغير عوض .

وفي شعر المتنبي أمثلة شتى لذلك ، منها قوله

(١) الديوان بشرح العكبري : ١ : ٧٦ (٢) الديوان بشرح

العكبري : ١١ : ٧٦

## (٢) التنازع

التنازع أسلوب من أساليب العربية ، يتوجه فيه عاملان أو أكثر إلى معمول واحد يطلب كل منهما العمل فيه ، مع التوافق في الفاعلية أو المفعولية أو التخالف فيهما ، لكن يثبت العمل فيه لأحدهما . ويختلف النحاة في أي العاملين أحق بالعمل ، فيري البصريون أنه الثاني ، لأنه الأقرب إلى المعمول ، ويرى الكوفيون أنه الأول ، لأنه الأسبق ذكرا وموقعا .

ومن أساليبه في القرآن الكريم قوله تعالى :  
( آتوني أفرغ عليه قطرا ) (٧) ، تنازع الفعلان ( آتوني ) و ( أفرغ ) ، كلاهما يطلب نصب ( قطرا ) ، فأعمل الثاني . ولو أعمل الأول لقال : آتوني أفرغه . ومن شواهد إعمال الأول قول امرئ القيس :  
فلو أن ما أسعي لأدني معيشة

كفاني ولم أطلب قليل من المال (٨)  
تنازع الفعلان ( كفاني ) ، و ( لم أطلب )  
فأعمل الأول ، ولذا رفع قليل ، ولو أعمل الثاني لنصب .  
ومن أمثله في شعر المتنبي قوله في قصيدة في دار لكافور :  
نزلت إذ نزلتها الدار في أحسـ  
ن منها من السنا والسناء (٩)

يريد بمنعها دلها أن تتكلم ، ومنعها الحياء أن تيس ، ولا مانع من إضمار أن بغير عوض إذا رفع الفعل بعدها . ويجوز بعضهم القياس عليه (١) .  
ومن شواهد قوله تعالى : ( ومن آياته يُريكم البرق ) (٢) ، أي ومن آياته أن يريكم . وفي المثل : تسمع بالمعدي خير من أن تراه (٣) ، أي أن تسمع بالمعدي خير .

ومن أمثله في شعر المتنبي قوله في قصيدة يمدح بها بدر بن عمار :  
أشفق عند انتقاد فكرته

عليه منها أخاف يشتعل (٤)  
يريد أخاف أن يشتعل .

وقوله من قصيده أخرى في مدحه أيضا :  
وتوقدت أنفاسنا حتي لقد  
أشفقتُ تحترق العواذل بيننا (٥)  
يريد أشفقت من أن تحترق .

ومع أن أن ليست عاملة في هذه الأساليب تعد في حذفها كالمذكورة ، ولهذا يستقبحون إعراب كلمة ( غير ) مفعولا به لأعبد في قوله تعالى :  
( أفغیر الله تأمروني أعبد ) (٦) ، لأن ( أعبد صلة لأن المضمره ، ولا يجوز أن تقدم الصلة أو بعضها علي الموصول ، ولكن تعرب مفعولا لتأمروني ، وأن أعبد بدل اشتغال منه ، أي تأمرني بغير الله عبادته ؟

(٥) الديوان : ٢ : ٤٠٨ (٦) سورة الزمر : ٨٤

(٧) سورة الكهف : ٩٦ ، والقطر : الحديد المذاب

(٨) سيبويه : ١ : ٢٣ (٩) الديوان بشرح العكبري : ١ : ٢٣

(١) شرح الاشموني : ٣ : ٢٣٦ (٢) سورة الروم : ٢٤

(٣) المعدي : تصغير المعدي للمنسوب إلى معد خففت الدال لثقل التضعيف مع ياء التصغير .

(٤) الديوان : ٢ : ١٥٦



وقوله حين دخل علي سيف الدولة ليلا وهو  
يصف سلاحا :

وصفت لنا ولم نره سلاحا

كأنك واصف وقت النزال<sup>(١)</sup>

### (٣) ذو وما تضاف إليه

ذو اسم بمعنى صاحب ، يتوصل به إلي  
الوصف بأسماء الأجناس ، ويضاف هو وأخواته  
إلى هذه الأسماء ، كما في قوله تعالى : ( تبارك اسمُ  
ربك ذي الجلال والإكرام )<sup>(٢)</sup> .

ولا يميز البصريون إضافته إلي الضمير<sup>(٣)</sup> ،  
وأضافه المتنبي إليه في قوله يمدح أبا أيوب أحمد  
بن عمران :

سربٌ محاسنه حُرمت ذواتها

داني الصفات بعيد موصوفاتها<sup>(٤)</sup>

### (٤) الفصل بين المتضايين

ينزل المضاف إليه من المضاف منزله التنوين  
من الاسم المنون ، ولهذا لا يميز البصريون الفصل  
بينهما إلا في ضرورة الشعر . ويميز الكوفيون  
الفصل بينهما في سعة الكلام في ثلاث مسائل ،  
ويمنعونه في أربع . يميزونه مثلا حين يكون  
المضاف مصداراً ، والمضاف إليه فاعله والفاصل  
بينهما ، إما مفعوله ، كقراءة ابن عامر :  
( وكذلك زُين لكثير من المشركين قتلُ أولادهم  
شركائهم )<sup>(٥)</sup>

وإما ظرفه ، كقول بعضهم : ترك يوما  
نفسك وهوها سعي لها في رداها ، فكل من  
( قتل ) ، و ( ترك ) مصدر مضاف إلي فاعله ،  
وهو شركائهم في الآية ، و ( نفسك ) في  
العبارة . وتقدير الآية : قتل شركائهم أولادهم ،  
وتقدير العبارة : ترك نفسك شأنها يوما مع  
هواها<sup>(٦)</sup> . وقد تبع المتنبي مذهب قومه في  
الفصل بين المتضايين ، فقال من قصيدة يمدح  
فيها أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوي :

حملتُ إليه من لساني حديقة

سقاها الحجا سقي الرياض السحائب<sup>(٧)</sup>

فسقي مصدر أضيف إلي ( السحائب )

فاعله ، وفصل بينهما بمفعول المصدر ، وهو  
الرياض .

### (٥) العطف علي ضمير الرفع المتصل

إذا عطف علي ضمير الرفع المتصل فالأكثر  
عند البصريين أن يفصل بينهما تأكيد المعطوف  
عليه بضمير منفصل ، كقوله تعالى : ( لقد كنتم  
أنتم وأبائكم في ضلال مبين<sup>(٨)</sup> ) ، فأبائكم معطوف  
علي التاء في ( كنتم ) ، وفصل بينهما التوكيد  
بأنتم ، أو يفصل بينهما بفاصل ما ، كقوله تعالى :  
( جناتٌ عدن يدخلونها ومن صلح )<sup>(٩)</sup> ، فمن  
معطوف علي الواو في ( يدخلونها ) ، وفصل بينهما  
بالضمير ( ها ) .

(٥) سورة الأنعام : ١٣٧ (٦) شرح التصريح : ٢ : ٥٧

(٧) الديوان : ١ : ٢٣٦ .

(٨) سورة الأنبياء : ٥٤

(٩) سورة الرعد : ٢٣

(١) الديوان : ٢ : ٧٦

(٢) سورة الواقعة : ٧٨ (٣) حاشية يس على التصريح : ١ : ٣٦

(٤) السرب : جماعة الأطباء ، ويعني به هنا جماعة من حسان النساء ،

أحبهن لكن الأيام فرقت بينه وبينهن ، فبعدن لكن ذكر محاسنهن حاضر  
أبدا . الذوات : جمع الذات .

ويجيز الكوفيون هذا العطف بلا فصل لكثرة  
في الشعر . ومن شواهد قول جرير يهجو  
الأخطل :

ورجا الأخطل من سفاهة رأيه

مالم يكن وأب له لينالا <sup>(١)</sup>

فعطف (أب) على الضمير المستتر في (يكن) ولا  
فاصل بينهما . ومنه في شعر المتنبي من قصيدة  
في مدح محمد بن سيار :

مضي وبنيه وانفردت بفضلهم

وألف إذا ماجعت واحد فرد <sup>(٢)</sup>

فعطف بنوه على الضمير في مضي .

#### (٦) التفضيل من البياض والسواد

لا يجيز البصريون أن يصاغ أفعال التفضيل من  
الألوان ، ويجيزه الكوفيون من السواد والبياض  
خاصة ، ومن شواهدهم في ذلك :

إذا الرجال شتوا واشتد أكلهم

فأنت أبيضهم سربال طباخ <sup>(٣)</sup>

فاشتق الشاعر « أسودهم » من السواد ،  
وجري المتنبي علي قومه في هذا التفصيل في قوله من  
قصيده في شعر الصبا :

أبعد بعدت بياضاً لا بياض له

لأنت أسود في عيني من الظلم <sup>(٤)</sup>

والخطاب في البيت لبياض شعر الشيب .

#### (٧) الترخيم في غير النداء

لا يجيز البصريون الترخيم إلا في النداء ، وأجازه  
الكوفيون <sup>(٥)</sup> ، ومن شواهدهم عندهم قول أوس بن  
حبناء :

إن ابن حارث إن أشتق لرؤيته

او امتدحه فإن الناس قد علموا <sup>(٦)</sup>

فابن حارث في الأصل ابن حارثه ، فرخمه  
بحذف التاء مع أنه ليس منادى ، واتبع المتنبي  
مذهب أهل الكوفة في هذا الترخيم ، فقال في  
قصيدة من شعر الصبا :

مهلاً ألا لله ماصنع القنا

في عمر وحاب وضبة الاغتام <sup>(٧)</sup>

فأصل عمر وحاب عمر وحابس ، فرخم  
بحذف سين حابس ، وهو غير منادى .

#### (٨) الجر بلات

تعمل لات عمل لا التي كليس ، فترفع الاسم  
وتنصب الخبر ، ولابد أن يكون معمولها اسمي  
زمان ، وأن يحذف أحدهما ، والغالب أن يكون  
الأول كقوله تعالى :

( فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصَ ) <sup>(٨)</sup> ، فالتقدير :

وليس الحين حين مناص . ويقول القراء : « من  
العرب من يضيف فيخفف » ، أنشدوني :

لات ساعة مندم

(٥) الانصاف : ١ : ٣٤٧

(٦) سيبويه : ٢ : ٢٧٢

(٧) الديوان : ٢ : ٢٨٥ ، والاغتام : جمع الغم ، وهو الذي لا يبين  
في منطقه

(٨) سورة ص : ٣ : وحين مناص : حين فرار .

(١) شرح الأشموني : ٣ : ٨٧

(٢) الديوان : ١ : ٢٣٦

(٣) الانصاف : ١٤٩ ، بسم الشاعر صاحبه بالبخل وأنه إذا جاء  
الشتاء وأجذب الناس كان طباخه أنظف الطباخين ثيابا ، لأنه لا  
يماس الطبخ ، فلا يعلقها شيء من ضر اللحم .

(٤) الديوان : ٢ : ٣٠

تفريحا للكرب ، واسترواحا للراحة . فإن في انبعاث الصوت انطلاق حبيس ، وتخفيف ثقیل ، واسترخاء من كزاز ، فلمن شاء أن يزيد في آخر المندوب ألفا يطيل بها صوته ، وله إن شاء أيضا أن يعزز الألف بهاء السكت ، ليلبغ بالصوت أقصي مداه ، إذ يلتقي سكون الألف وسكون الهاء ، وفي التقاء كل ساكنين مزيد من طول الصوت في الأداء ، ومزيد من التنسم والاسترواح .

وقد جاء المتنبي بأسلوب ندبة في مطلع قصيدته التي عاتب بها سيف الدولة حيث يقول :  
واحر قلباه ممن قلبه شيم

ومن بجسمي وحالي عنده سقم (٥)  
والمندوب في البيت قوله : « واحر قلباه » ، وحر مضاف إلى ياء المتكلم وهو قلبي ، وقد جري المتنبي فيه لفة قومه ، فأبدل من ياء المتكلم ألفا ، ثم أتبعها بهاء السكت وأثبتها في حال الوصل (٦) .  
وعند البصريين أنه إذا ندب مضاف إلى ياء المتكلم لزم الياء لأن المضاف إلى الياء ليس مندوبا ، ويجوز الفراء إثبات الهاء وصلا ووقفا مع تحريكها بالضممة أو الكسرة ، وأنشدوا :  
ألا ياعمرو عمراه

وعمرو بن الزبير (٧)  
ولا يميز البصريون إثبات الهاء وصلا إلا في الضرورة (٧) .

وبقيته :

ولتعرّف خلائقا مشمولة

ولتندمن ولات ساعة مندم (١)  
وقد عمل المتنبي بمأرويه الفراء ، فأضافها وخفض بها في قوله من قصيدة قالها في صباه :  
لقد تصبّرت حتى لات مصطبر  
فالآن أقحم حتى لات مقتحم (٢)

### (٩) منع المصروف من الصرف

لا يميز البصريون منع الاسم المصروف من الصرف ، وأحازه الكوفيون ، وشواهد المنع كثيرة ، ومنها قول أبي دهل الجمحي :  
أنا أبو دهل وهب وهب لوهب

من جمع والعزيم والنسب (٣)  
فمنع الشاعر دهل من الصرف وهو مصروف . وجري المتنبي على منع المصروف في قوله من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة :  
وحمداً حمدون وحمدون حارث  
وحارث لقمان ولقمان راشد (٤)  
فمنع المتنبي حمدون الثانية وحارث الثانية كذلك من الصرف وهما مصروفان .

### (١٠) الندبة

الندبة أسلوب يشبه أسلوب النداء ، يقوله القائل تفجعا لهالك ، أو توجعا من شدة . ويغلب فيه مد الصوت إعلانا للرزاء ، أو مجاهرة بالألم

(٥) يقول : إن قلبي يتوقد حرا من حبه ، وعنده أن حالي مختلفة

وجسمي سقيم

(٦) شرح التبيان : ٢٥٤

(٧) شرح الأشموني : ٣ : ١٣

(١) معاني القرآن : ٢ : ٣٩٧

(٢) الديوان : ٢ : ٣٤

(٣) الانصاف : ٢ : ٥١١

(٤) الديوان : ١ : ١٧٣

## تعقيب

أو يكون منها علي حرف — إلا اعتصم في الأمر كله بالحكمة والعدل ، واجتناب الجراة المفتحة ، لا تبالي غلوا ولا اعتسافا .

وهو إذ تعرض له شواهد النحو من الشعر ، يدرسها ويصنفها لا يطيب له أن يمس نصوصها بما ينال منها بغير حق ، فالقرآن في قدسيته وسموه علي ذكر منه صورة وتمثلا لا يكاد يفارقه .

وهيات لقوم مع هذه المشاعر القرائية المتنسكة أن ينشطوا لتفريق أو مباحة في الحكم والمزبة بين صنوين من القول صدرا عن أصل واحد ويراد المفاضلة بينهما في شأن من شئون التعبير ، وإنهما ليجمعان إلي وحدة الأصل — وحدة المادة ، وسمات العبارة وخصائص الأساليب . وماذا في جمعهما علي سواء في الأمر كله إلا التيسير والإيجاز ، وإلا النزول علي حكم المشابهة الجامعة ، دون مضرة ولا محذور ، لابل إن الجمع بينهما علي هذا النحو ليعفي أحيانا كثيرة من التأويل والتقدير ، وحمل النص علي مالا يقبل أن يحمل عليه .

تلك هي الخواطر النفسية التي يظن أنها حاكت في صدور السابقين الأولين من نحاة الكوفة ، إذ أقبلوا علي قضية شواهد النحو من الشعر ، يدرسونها ويقضون قضاءهم فيها ، لينتهي المطاف بهم إلي المساواة بين هذه الشواهد في الاحتجاج بها والقياس عليها .

ويلخص السيوطي صنيعهم هذا

ذكرنا آنفا عشر مسائل من نحو الكوفة ، نظم المتنبي علي مثالها في شعره ، انحيازاً إلي وطنه ، ومتابعة للنحاة من أشياخ قومه .

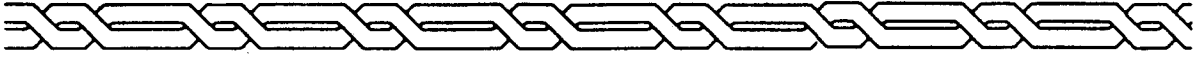
ولعل أكثر ماثير العجب منها ، ويدعو إلي المسألة عنها أن شواهدا من الشعر تذهب قسمة بين الدور والشذوذ ، وأن الكوفيين برغم ذلك رأوها كلها صالحة للاستشهاد بها والقياس عليها (١) ، مثلها كمثل الشواهد الأخرى ، تجمع لها السيورة وتباهة الذكر .

ولا يبدو هذا مستقيما ، فالعربية كغيرها من اللغات — تتفاوت نصوصها حين المفاضلة بينها ، وأبناءؤها كأبناء سائر الأمم — تتفاوت درجاتهم في الإبانة واللسن .

علي أن الذي رأينا من الكوفيين في شواهد نحوهم من الشعر فعجبنا له ، وتساءلنا عنه لم يقع لهم عفوا ، ولا كان منهم انتحالا ، لكنه تمثل لهم كما تتمثل النتيجة ومقدماتها أو العاقبة وأسبابها . لقد كانوا أهل قرآن ، عرفوا كلام الله ، فأحبوه ، وأخلصوا له ، وعكفوا عليه يقرؤنه ويقرئونه ، ويتلقون المأثور من قراءاته ، رواية وتحملا عن الثقات المقدمين من أشياخهم .

وللقرآن في نفوس أهله عمل ، وله عليهم سلطان ، مما ينفخ فيهم من روحه ، ويأخذهم به من آدابه ، فتمسهم نفحات طيبات من خشوع المتقي ، وتحري الحذر ، وتخرج المشفق ، وأناة المثبت . وما من عالم يأخذ من هذه الخصال بسبب

(١) انظر الانصاف للأنباري ، ففيه أمثلة لذلك كثيرة .



فيقول : « عادة الكوفيين إذا سمعوا لفظا في شعر  
أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا ، وليس  
بالجيد » .

تلك كانت حال أهل الكوفة ، أما أهل البصرة  
فكانوا أصلح حالا ، وأوفر من الثقافة حظا ،  
وأقدم عهدا . لقد مصرت البصرة قبل الكوفة ،  
واختير لها موقع بين الفرس ، والروم ، ولم تلبث أن  
نفر إليها الناس من هنا وهناك .

ونبت فيها النحو أول عهده بالحياة ، وتعهد  
أصحابه بأسباب الحفظ والرعاية فما واشتد  
عوده ، وزهت فروعة ، وآتي ثماره يانعة طيبة ،  
وخلف السابقين اليه خلف صالح من أهله ، حملوا

أمانته ، ورعوها حق رعايتها ، يؤدون حقه  
كأفضل مايكون الأداء إخلاصا وأداء ، رفعوا  
قواعده ، وأعلوا بناءه ، ووثقوا أحكامه وشققوا  
أصوله ، واستحدثوا فيه أنواعا من الدراسة ،  
أودعوها بحوثا خصيبية ، وآراء ناضجة تتميز  
بالدقة والبراعة واستقامة المنطق .

ومايزال الخالفون من أهله يواصلون العمل له ،  
والافتتان في درسه ، ففاض واستبحر ، ورضيه  
العلماء ، وفرغوا في القديم والحديث ، يوسعونه  
نقدا وتقويما ، وتبعهم الناس فيه أخذا وافتنانا ،  
حتي كأن ليس للعربية نحو سواه . ولله عاقبة  
الأمر وإليه المنتهي والمصير ،

على النجدي ناصف

عضو مجمع اللغة العربية

